

الصورة النمطية وصناعة الآخر

Stereotype and the manufacture of otherness.

إبراهيم بوخالفة

المركز الجامعي مرسلني عبد الله

Boukhalfa.ibrahim@cu-tipaza.dz

تاريخ الاستلام: 2024/02/22 تاريخ القبول: 2024/10/25

● الملخص:

تعبّر الصورة النمطية في الخطاب الروائي الكولونيالي الحديث تعبيرا بليغا عن مخيال رمزي نشط، متشكّل من خلال أحقاب مديدة من الصراع بين الشرق والغرب، انطلاقا من الحروب الصليبية، مروراً برهاب الإمبراطورية العثمانية ووصولاً إلى الحروب الاستعمارية الحديثة. إنّها تمثيلات غيريّة بالغة السوء، تصنّف الآخر تصنيفاً يجردّه من إنسانيّته تمهيدا لامتلاكه. ويُعدّ الأدب الرحلي من أهمّ الخطابات المشبعة بالصورة النمطية، بكلّ أصنافها، ومن خلالها يتمّ تنميط العربي باعتباره كائنا منبوذاً، يشكّل وجوده تهديدا للحضارة الإنسانية. وكمثالٍ على ذلك ندرس "رحلة إلى المشرق" للكاتب للرحالة البريطاني أ. و. كينغلوك، وفيه يزور الرحالة لبنان. كيف مثّل هذا الرحالة العالم الإسلامي؟ وما مدى مطابقة تمثيلاته لواقع ذلك العالم؟ وهل كان الرحالة موضوعياً في أحكامه؟ تلك هي أسئلة هذه الدراسة...

كلمات مفتاحية: الصورة النمطية؛ الصورة التمثيلية؛ الآخر؛ أدب الرحلة.

Abstract: (Do not exceed 10 lines/ 250 words as a maximum)

The stereotypical image in modern colonial narrative discourse expresses an eloquent expression of an active symbolic imagination, formed through long periods of conflict between East and West, starting from the Crusades, through the fear of the Ottoman Empire, and reaching the modern colonial wars.). These are extremely bad representations of alterity that classify the other in a way that deprives him of his humanity in preparation for owning him. Travel literature is considered one of the most important discourses that is saturated with stereotypes of all kinds, through which the Arab is stereotyped as an outcast, whose presence constitutes a threat to human civilization. As an example of this, we study "Journey to the Orient" by the British traveler A. And the. Kinglak, where travelers visit Lebanon. How did this traveler represent the Islamic world? To what extent do his representations match the reality of that world? Was the traveler objective in his judgements? These are the questions of this study

Keywords: Stereotype; representational image; the other; Travel literature.

لقد شكّل الشرق نقطة استقطاب لأوروبا طيلة حقبة الأنوار، وهي الفترة التي كان فيها الغرب بحاجة ماسة لمعرفة آخره، ودراسته دراسة عميقة من أجل السيطرة عليه في المحصلة النهائية. ومن بين البدائل المتاحة للدول الاستعمارية في القرن التاسع عشر، من أجل امتلاك تلك المعرفة المرغوبة عن الشرق، الرحلة والاستشراق كحقل أكاديمي متخصص، والبحث الانثروبولوجي. وفي هذه الدراسة سنتوسّل الرحلة الأدبية للشرق، لمعرفة كيفية تمثيل الرحالة الغربيين للشرق والشرقيين، من خلال الأنماط والصور التمثيلية المقارنتية. ومن أجل ذلك وقع اختيارنا على رحلة أ. و. كينغلك، الرحالة البريطاني الحديث أثناء زيارته للبنان. وسنحلل هذه الرحلة على ضوء آليات النقد الثقافي التي تسمح برصد الأنساق الثقافية وتحديد معالم الغيرية التي تتمظهر من خلال الصور والأنماط الجامدة. وانطلاقاً من هذا المسعى تبدو لنا إشكالية التمثيل الرمزي للآخر محلّ تساؤل في هذه السردية الرحلية؛ ما مدى قدرة الرحالة على تمثيل الشرق والشرقيين من خلال النمط؟ ما علاقة تلك التمثيلات بالمشروع الاستعماري لـ"انجلترا؟ هل تمكّن الرحالة من صناعة آخره من خلال التمثيل الرمزي لوجوده الاجتماعي والثقافي؟ بالإجابة على هذه الأسئلة سيكون بإمكاننا إدراك العلاقة بين التمثيل والإيديولوجيا، وبين الثقافة عموماً والامبريالية الأوروبية خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

1. مفاهيم عامة:

1-1 المخيال الرمزي:

من المصطلحات الأساسية لهذا الحقل من الدراسة المخيال الاجتماعي، ويمكن الإمساك بحقيقته من خلال الكلمات التي تتشكل من مادتها الصور التمثيلية والقوالب الجامدة. وقد تمّ تعريف المخيال الاجتماعي باعتباره "مجموع التمثيلات الجماعية الخاصة بمجتمع ما"¹، هو إذاً مجموع الصور عن الأنا وعن الآخر الأجنبي في اللحظة ذاتها، وهي صور مترابطة ترابطاً عضوياً، ترابط وجهي العملة الواحدة. فالعقل الغربي عقل مانوي يفكر من خلال الثنائيات الضدية، ففي مقال الرجل الأبيض نلفي الملون، وفي مقابل الأوروبي الذكي، نجد العربي صاحب التفكير الذري، وفي مقابل الأوروبي النشط نجد العربي الكسول، وهكذا.

يتشكّل المخيال الرمزي للمجتمعات من خلال مراكمة التجارب والخبرات التي يعيشها الأفراد ويمارسونها من داخل ثقافتهم وأنماط وجودهم وأشكال تفاعلهم مع العوالم الخارجية الموصولة بعالمهم، والمناوئة لهم أو المتصالحة معهم. ويضطلع السرد بكلّ أجناسه للتعبير عن هذا المخيال الرمزي من خلال ما يُصطلح عليه ب: الصورة النمطية، والصورة التمثيلية، بما تحمله من أبعاد فكرية وجمالية ذات بلاغة عالية الاشتغال.

يكثُر الحديث عن الأنماط (Les stéréotypes) عندما يسعى الأدباء والرحالة والمستشرقون إلى تمثيل الشعوب الأجنبية التي يحتكّون بها من أجل التعريف بها وتقديمها لشعوبهم ومن أجل فهم ملامح شخصيتها العامة وعاداتها السلوكية. وكثيراً ما يُصار إلى توظيف الأنماط والقوالب الجامدة في تمثيل الشعوب أثناء الحروب والأزمات؛ فهي الحالات التي تؤثر على الموقف العام من الآخر، وسوء تمثيله وازدراءه.

يمكن التعبير بالأنماط والصور التمثيلية من تثبيت الآخر في غيريته، وجعله غير قابل للتغيّر أو التطوّر وتجاوز صورته السلبية. كما يُمكن التعبير من خلال الأنماط من تعيين الذات باعتبارها النقيض المطلق للآخر. ففيما يتعلق بالآخرية، يمكن قلب الصورة رأساً على عقب لمعرفة الذات. وهكذا، تعمل الصورة النمطية على صناعة الآخر وإسقاط كلّ قيم الشر والقبح وكلّ أشكال الدونية ناحيته. من جهة أخرى تمكّن صناعة الآخر من خلق اللحمة بين الجماعة الإثنية، أو أفراد الأمة الواحدة، عندما يصار إلى تمييزها عن أغيارها وتبجيلها عليهم.

¹ - J. M. Mourail, l'image du tiers monde dans le roman français contemporain, presse universitaires de France, paris, p 167 ;

وقد دأب الغرب على ازدراء الثقافات الأجنبية من خلال سوء تمثيل الشرق والشرقيين واحتزالهم في قوالب نمطية جامدة، غير قابلة للتجاوز، كالقول بأنهم برابرة وبدائيون وإرهابيون وداعشيون وما شاكل ذلك من أنماط محقرة.

2-1- الصورة النمطية:

ما المقصود بالأفكار النمطية، أو القوالب الجامدة؟ ومن الذي وظّف هذا المصطلح وأدخله إلى مجال علم النفس الاجتماعي، حيث تُدرس الشخصية البشرية في إطار بيئتها الثقافية ومحيطها الاجتماعي؟ تحيلنا هذه الأسئلة إلى الصحفي الأمريكي المعروف والتر ليبمان (كاتب أمريكي ومراسل ومعلق سياسي مشهور ويعتبر من أوائل من أدخل مصطلح الحرب الباردة. ولد سنة 1889، وتوفي سنة 1974، من أشهر مؤلفاته "الرأي العام"). يشير مصطلح الأنماط من منظور ذلك الصحفي "إلى القالب الذي تُصَبُّ على نسقه حروف الطباعة، لكي يستخدمه في مجال آخر بعيداً تماماً، هو مجال الاتجاهات والأفكار إذا اتّسمت العمليات الذهنية -التي تشكل مادة الخبرة في نماذج ثابتة- بطابع جامد متصلّب². الفكرة النمطية إذاً، أو القالب الجامد، هو الإطار الحديدي الذي تقوّل فيه الشخصية موضوع التمثيل، كما تقوّل الأفكار. وهو قالب جاهز وثابت ولا تاريخي، وغير قابل للانزياح. إنّه تمثيلٌ صُمِّم ليكون أبدياً، مشحوناً بالمشاعر السلبية وبكثير من الازدراء والتشنيع. إنّها أسوأ طريقة لتثبيت الآخر في غيريته ورفض تطوره وإنكار تجاوزه لحالة السلبية والجمود التي وُصِفَ بها. ذلك أن غيريته تعود إلى عوامل عرقية وفيزيولوجية وتكوينية لا يمكن تطويرها من خلال التربية والتعليم والترويض. الأنماط إذاً هي "التعبير عن زمن متوقف، زمن الماهيات"³ المتشكّلة في الماضي الغابر، والمتجمدة على وضع سكوني أبدي.

تشكّل الصورة النمطية من اللغة المشحونة بالمشاعر والتخييل لتتقلّ جملة من الأفكار والأحاسيس حول موضوعها. وفي تعريف رديف لها، "هي عملية إعلامية متعمدة، مخطط لها للاختزال والتبسيط المخلّ، للصورة العامة لشخص، أو جماعة أو فئة اجتماعية أو شعب، بحيث تختزل في مجموعة قليلة من السمات تستدعي ردود أفعال معينة من الجمهور"⁴. إنّ من نتائج التعبير بالأنماط الجامدة أنّ معرفة الأشياء تتغيّر. فبدل أن نرى الأشياء ونختبرها ونجرّبها ثم نعرفها ونعرّفها، يحصل العكس. فنعرّف الأشياء والأشخاص والأماكن كما تُقدّم لنا من خلال الأنماط، ثم نراها ونختبرها ولا نعمل على تغيير معرفتنا بها إذا بدا لنا أنّ ما عرفناه بدءاً لم يكن مطابقاً للحقيقة الموضوعية. والواقع أنّ خطاب الصورة التمثيلية (L'image représentative)، والأفكار النمطية لا يبحث عن المطابقة مع الواقع بقدر ما يبحث عن الغريب والعجائبي والمثير للدهشة. ليست الصورة التمثيلية المقارنة "نسخة عن الواقع، إنّها تشكّل بالاعتماد على مخططات وإجراءات توجد قبلها ضمن الثقافة الناطقة"⁵. توجد صورة الآخر في ذهن المقارن، قبل أن توجد في الواقع. ذلك أنّ الإنسان يدرك العالم من خلال التمثيل اللغوي المستعار. إنّ العالم مدرّك في شكل خطاب لغوي، وخارج اللغة لا شيء موجود. والشعوب هي الأخرى لا توجد بالنسبة لبعضها إلا في شكل تمثيلات لغوية وخطابات أدبية. إنّ الأمم سرديات ومرويات، وعدا ذلك فإننا خارج التاريخ.

ومن الواضح أنّ هذه الطريقة تترتب عنها أخطاء كثيرة في إدراك العالم. ويمكننا أن نمثّل لذلك بأقرب تجربة لنا في علاقة الشرق بالغرب. فقد تمّ تمثيل الشرق العربي والإسلامي بدءاً من تجارب الحروب الصليبية، وصيغ هذا الشرق في سرديات الرحالة والأدباء الغربيين والانثروبولوجيين، من خلال لغة الأنماط الجامدة، ثم سُوّق إلى الغرب، وهكذا تعرّف الأوروبيون على الشرق قبل أن يروه أو يختبروه؛ ولم يتمكنوا من تعديل الرأي العام الذي شكّلوه عنّا رغم انفتاح العالم وزوال الحدود الثقافية بين القارات. فالعرب همج وبرابرة وإرهابيون. وبقيت هذه الصور النمطية ثابتة في المخيال الرمزي للأوروبيين، ولم يتغيّر منها إلا الشكل. ففي الثمانينات من القرن الماضي كانت صورة الملاي

² -السيد ياسين، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط الثالثة 1983، ص 41.

³ -دانيال هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ترجمة غسان، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط الأولى 2008، ص 94.

⁴ - شفيق شاشو، الصورة النمطية عبر الانترنت وأثرها على تربية الطفل العربي، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، ص 2.

⁵ -دانيال هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص 92.

ذات رواج في سرديّة الآخر لدى الغرب، وفي التسعينات راجت صورة الإرهابي، مختطف السفن التجارية ومفجّر الطائرات، وأعقبها صورة القاعدة، ثم داعش، وكلّها أفكار نمطيّة تختزل الشرق الإسلامي وتبتذله إلى حدّ المهانة. وعلى أساس هذه الأفكار النمطيّة يُنظر إلى المسلمين باعتبارهم إرهابيين وجهاديين، وبالتالي فهم مصدر تهديد وجودي للحضارة الغربيّة. وإنّ حروب الشرق الأوسط اليوم تستند إلى هذه الإيديولوجيا التي تشكّلت عبر قرون عديدة من خلال خطاب الآخريّة الذي تروّج له سرديّات الغرب عبر كلّ البدائل المتاحة.

سنجد ما يشبه تلك الصور النمطيّة التي تُثقلُ أرواح الاستشراق الغربي حول الشرق والشرقيين في وسائل الإعلام الأمريكيّة في فترة ما بعد الحرب العالميّة الثانية، حيثُ تسود الأفلام السينمائيّة التي تنتجها الهوليوود "صورة البدوي الذي قد يكون من البدو الرّحل، يتّسم بأنّه فقير، تعليمه منخفض، يعيش مع حريم حيث لا توجد للنساء سوى حقوق قليلة إن كانت هنّ أيّ حقوق على الإطلاق"⁶. وهكذا، فقد دأب الغرب على ازدراء الثقافات التي لا تقع تحت طائلة مجال الإدراكي، ولا تتناسب مع خطّ تطوره، فكلّ مختلف غريب ودونيّ ولا يستحقّ أن يذكر. يُتصوّر العرب "راكي جمال، إرهابيين، معقوفي الأنوف، شهوانيين، شرهين، تمثّل ثروتهم غير المستحقّة إهانة للحضارة الحقيقيّة"⁷. والحضارة الحقيقيّة هي الحضارة الأوروبيّة، حيثُ يركب الأوروبي السيارة، تعبيرا عن تطوّرهم وتحضّرهم، واعتدالهم.

لقد ابتدئ العنصرانيون الفرنسيّون تصنيفات اعتباطيّة لكل القوميات بما فيها الأوروبيّة، وصاغوها في كليشيهات جامدة، "فالروس كتلّ همجيّة (...)"، وما يسمعون الآخريين من أصوات هو "تألف أصوات حيوانات متوحّشة"⁸. أمّا الألمان، فإنهم يؤلفون كتباً لا يقرأها إلّا ألماني، وهذا كناية عن غموضها، أو ضعف قيمتها العلميّة. أمّا الشعب الإنجليزي فهو عملاقٌ وضعيفٌ ومتورّمٌ.

3-1- الصورة والآخريّة:

لقد نشط علم الصورة (imagologie) في أواخر القرن التاسع عشر واستفحل أمره مع مطلع القرن العشرين إثر انبثاق النزعات القوميّة في أوروبا، وتشكّل الظاهرة العنصريّة ضدّ الأجانب، والعرب بشكلٍ خاص. "وقد استوحى هذا الفرع المعرفي مادّته من الدّراسات الانثروبولوجيّة التي تدرس العلاقات بين الجماعات السلاليّة المختلفة"⁹. من أجل معرفة خصائصها وعاداتها السلوكيّة وردود أفعالها وقيمها، ومن ثمّ يسهل نميظها واختزال صورتها في شكل مادّة إعلاميّة أو سرديّة أدبية تستهلك في الغرب وتنمي التمرّكز على الذات ووسم الآخر بالدونيّة. تنبثق كلّ صورة تمثيليّة "عن إحساسٍ مهما كان ضئيلاً بأننا بالمقارنة مع الآخر، وبهنا مع مكانٍ آخر"¹⁰. فالصورة المقارنيّة هي تشكيلٌ سردي يُبلور صورة الذات في مقابل صورة الأجنبي، والغريب، وغير المألوف، وغير المرغوب فيه. إنّ كلّ من يوصف بالآخر إنّما يشكّل تهديداً للأننا، ويتعيّن نفيه أو قتله رمزياً.

تتقاطع الدّراسات المتعلّقة بالصورة بالعلوم الإنسانيّة التي تهتمّ بدراسة السلالات البشريّة، وبالتاريخ والانثروبولوجيا، وعلم النفس الاجتماعي، والذهنيات وعلم تطور الأفكار.

خلال النزاع الأمريكي الياباني، أثناء الحرب العالميّة الثانية، وبينما كان اليابانيون يُصوّرون على أنّهم أذكىء ومجدّون في العمل، نجد أنّ الموقف منهم قد تغيّر بعد عملية بيرل هاربور، وأصبحوا يُعتنون بكونهم محتالين ومستبدين وغلاظ القلب وشوفيّين. وبالتالي فإنه يتبين لنا أنّ النمط أو الصورة التمثيليّة تقدّم نفسها على أنّها الأسلوب البليغ لصناعة صورة قائمة عن الآخر وتثبيتها فيها، وأكثر ما يكون ذلك في الحروب والأزمات. يوصف الشرق -أوسطيّون اليوم على أنّهم متوحشون وإرهابيون في مقابل اليهود الديمقراطيّين والحدّاثيين. وتعزيزاً لهذا النمط وبعد أحداث السابع من أكتوبر يذكّر وزير الدّفاع الإسرائيلي أنّهم يقاتلون وحوشاً آدميّة. وهو امتدادٌ للتمثيل السائد عن العرب.

6 - السيد ياسين، الشخصية العربيّة بين صورة الذات ومفهوم الآخر، ص 87.

7 - إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، المؤسسة العربيّة للنشر، ط الأولى 1981، ص 131.

8 - تزفيتان تودوروف، نحن والآخرين، ترجمة ربي حمود، دار المدى/ سوريا، ط الأولى 1999، ص 247.

9 - إبراهيم بوخالفة، صناعة الشرق، دار الفكر العربي، الجزائر، ط الأولى 2018، ص 49.

10 - دانيال هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص 91.

غير أن مقاتلي حماس، وبعد إطلاق صراح الرهائن عملوا على إفساد تلك التمثيلات من خلال حسن التعامل مع الأسرى. والأثر الذي أحدثه هذا المسعى كان غير مؤثر على موقف الغرب الرسمي من الصراع بين الفلسطينيين واليهود. إنَّ حرب الصّور تسير سيراً حثيثاً بالتوازي مع الحرب النارية. فقد غدت صورة المقاتل الفلسطيني الشّريف مهيمنة على الإعلام العالمي في مقال صورة اليهودي قاتل المدنيين ومدّمّر الأبراج والعمارات فوق رؤوس أصحابها.

يدرك الفلسطيني اليوم أنّ للصّورة التّمثيلية، بغضّ النظر عن مطابقتها للواقع أو مخالفته له، أثراً بالغاً على موقف العالم من قضيتّه. ومن أجل ذلك فإنَّ محرق اهتمامه منصبّ على تجميل صورته وتقييح صورة المحتلّ المارق.

تلعب الصّورة النمطية من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، ومن خلال السّمعي البصري دوراً محورياً في تمثيل الشّعوب والجماعات الثقافية المتناوئة، وخصوصاً مع أصوات العولمة التي تشكّل تهديداً وجودياً للأقليات الإثنية والشّعوب العنصرية. يتم تمثيل العرب والمسلمين اليوم إعلامياً، وفي أمريكا بشكل خاص، "بوصفهم موريدي نفط أو إرهابيين محتملين"¹¹. لقد دأب الإعلام الغربي على ازدراء آخريه من أجل تبرير احتلالهم والسيطرة على مقدّراتهم، وهو ما يحصل اليوم بشكل دقيق. فلا نكاد نعثر على زاوية من زوايا العالم الإسلامي لا توجد فيها لأمريكا قوّة ردع وقمع. وقد فُرض هذا الواقع بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وما أعقبها من حروب انتقامية مبرّرة من وجهة نظر غربية.

يعتقد الغرب أنّ الإسلام يشكّل تهديداً إيديولوجياً لا نظير له في كلّ الأديان والمذاهب الأخرى. إنّها إيديولوجيا لا تقبل التفاوض على الحلول الوسطى وترفض التعايش مع نقيضها. فالإسلام هو سبب رفض الحداثة الغربية في بلاد المسلمين. هذا الإسلام الذي ظلّ يعيش "في طفولة مؤبّدة متدرّعا في وجه التطور الحق، بمجموعة بالية من الخرافات وبنوع شيوخه وكتبه الجهال خروجه من العصور الوسطى إلى العالم الحديث"¹². يتعلّق الأمر بالمقاومة العنيدة التي يبديها المحافظون تجاه موجات الحداثة الغربية التي تحدّد العالم الإسلامي في هويته الثقافية وفي قيمه العليا وأنماط تفكيره. هذه الجماعات المقاومة أضحت اليوم هدفاً مشروعاً لأمريكا وأوروبا، وبأشكال احتراّب متعدّدة. فإذا كنّا قبل الحربين الكونيتين نتحدّث عن الأوربة (Européanisation)، فإننا اليوم نتحدّث عن العولمة (Mondialisation). وتهدف كلّ منهما إلى تدمير بنى الثقافة الوطنيّة لمستعمرات الغرب القديمة، والهيمنة عليها سياسياً واقتصادياً.

إنّ وسم العرب بكلّ أشكال الدّونية والوضاعة ينضوي تحت استراتيجيات الهيمنة والتحكّم وتبرير التدخّل العنيف في السياسات المحليّة، ومنع سرديات المقاومة من أن تنشأ أو تتطوّر إلى الحدّ المزعج. وقد راجت كليشاهات محقّرة بحق العرب والمسلمين والأفارقة في السّرد الأوروبي والسينما، من مثل "إرهابي" و"همجي" و"بربري" و"فظ"، و"شبيقي" و"كسول" إلخ. نجد هذه النعوت في الرواية الغربيّة الحديثة والمعاصرة، وفي السينما، وفي الصحافة والإعلام السّمعي البصري. والواقع أنّ العرب والمسلمين انتشروا في أوروبا وأمريكا بعد انسحاب الاستعمار الأوروبي بشكل ملحوظ، بحثاً عن العمل أو عن فرص امتلاك التكنولوجيا، مستفيدين من أموال النفط المتدفقة على بنوكهم الوطنيّة. وقد بدوا منزوعي المهابة التي كانت تحيط بهم، والجلال الذي كان يتغشاهم قبل أن يتخلّوا عن عالمهم وعن أصولهم التاريخيّة، وينغمسوا في ملذّات الحضارة الماديّة التي توفّرها المدينة الأوروبيّة الحديثة. "فالعرب الذين يرتدون العباءات والغارقون في النقود، والمسلّحون جيّداً، اقتحموا كلّ مكانٍ في الغرب"¹³، وشوّهوا صورة العربي المسلم، المشوّهة أصلاً، وسمّحوا بتدنيس مقدّساتهم وتغييب أمجادهم وتاريخهم، ليتحوّلوا إلى عناصر منبوذة تسيء إلى تاريخها. بل لقد تحوّلوا إلى وكلاء ثقافيين لدى الغرب، أسنّدت لهم مهمّة نشر قيم الحضارة الغربيّة في بلدانهم. فبمجرّد عودتهم إلى أوطانهم يتحوّلون إلى مبشّرين بالحداثة والتنوير الأوروبي في شكله الفج.

11 - إدوارد سعيد، تغطية الإسلام، ترجمة سميرة نعيم خوري، دار الآداب، لبنان، ط الأولى 2011، ص 116.

12 - المرجع نفسه، ص 118.

13 - إدوارد سعيد، تغطية الإسلام، ص 129.

2- صورة الشرق في رحلة كينغلك إلى الامبراطورية العثمانية:

1-2- البعد الروحي للشرق المسيحي:

اقتترنت صورة العثماني الانكشاري في القرن التاسع عشر بكلّ معاني البربرية والهمجية التي لا نظير لها في تاريخ العالم الوسيط والحديث. فالامبراطورية العثمانية عدا عن كونها تمثل الإسلام المجهوم والعدائي إلى حد بعيد، فقد كانت تحتل أجزاء واسعة من جنوب أوروبا، وتهدد بابتلاع المزيد بمجرد تهيؤ الظروف المناسبة. لقد كانت العلاقة بين الإسلام والمسيحية، أو بين الشرق والغرب الحديث، علاقة مريبة ومثيرة للجدل. كانت أوروبا في حقبة التنوير قد عرفت ثورات عديدة أهلتها لتحقيق نهضتها التاريخية ونبت العالم القديم بكل رموزه الثقافية والسياسية. وقد أدركت أنّ امتلاك العالم ووضع تحت أقدامها هي مسألة وقت؛ كانت الامبراطورية العثمانية في طريقها إلى التفكك والضعف، ممّا حدا بأوروبا أن تنعتها بالرجل المريض، الذي يجب تمديده على طاولة العمليات الجراحية لتشذيب شذوذه وتجرّيده من عوامل قوّته، وتحييد قدرته على الغزو. والواقع أنّ أوروبا كانت تنهياً لتفكيك الامبراطورية العثمانية والقضاء على مواطن قوّتها التي استمدتها من الإسلام الذي يشكّل بالنسبة للغرب إيديولوجيا هجومية لا تقبل التفاوض أو التعايش السلمي مع آخرها. ومن أجل التمهيد لهذا المشروع التدميري كان الغرب في حاجة إلى معرفة عميقة بخصمه، وإلى تسويق أخلاقي يبرّر به سلوكه الاستعماري. من أجل ذلك كان يرسل أدباءه ومفكره وعلماءه للشرق الإسلامي لمعرفة عاداته وأنماط عيشه وتفكيره عن قرب. "إنّ الفهم التام للآخر لا يتحقّق إلاّ بالانغماس فيه"¹⁴. وهو الأمر الذي تحقق بالفعل. فقد كان الرحالة الأوروبيون يقصدون شرق "ألف ليلة وليلة" لمعاينته عن قرب، والانغماس في ملذاته، والتنعّم بدفته. وستتيح لهم هذه التجارب التعرف على الشرقيين وتوثيق معرفتهم لهم فيما سيسمّى لاحقاً أدب الرحلة. لقد مكّنت الرحلة من "تنميط الشرق والشرقيين، عبر رسم صورٍ دنيا لهم بواسطة مخيلة جائعة إلى السحري والأیروسي والعجائبي"¹⁵. وهو مسعى مقصود، ليس فقط من أجل تعريف الجمهور الأوروبي بهذا الشرق المتخلف، ولكن تحديداً من أجل الإعداد لاحتلاله والهيمنة عليه وحكمه. لقد كان هؤلاء الرحالة يعيدون صياغة الشرق وفق ما يشتهون ويتخيّلون. من أجل ذلك كان إدوارد سعيد يردّد أن الشرق صنعة.

تنطلق رحلة "كينغلك" من بيروت التي حلّ بها أولاً، وقد حظي باستقبال المسيحيين، في حين كان الأهالي المسلمون يتحاشونه. فقد كان العربي المسلم لا يروم الأوروبي ويتوجّس منه خوفاً. لقد كان مقدم الأوروبي إلى الشرق نذير شؤم، بسبب رمزيته الاستعمارية. كان أول ما سجّله الرحالة البريطاني هو وجود سيّدة بريطانية منعزلة في ديرٍ تقضي فيه بقية أيامها بعد أن يئست من مادّة أوروبا، وقحطها الروحي. كانت تدعى "ليدي هستر ستانغوب"، وقد اتخذت مقاما في ديرٍ قديم في أعالي أحد جبال لبنان، وخارج المدينة. لقد التحقت بأرض النبوات لتعيش التجربة الروحية من منابعها الطّبيعية، بعيداً عن الحداثة الأوروبية التي تدمّر الروح كما تُدمّر الأعشاب الطّفلية. ما يلفت الانتباه في هذه السيّدة الأوروبية، هو أنّها كانت ترفض مقابلة الأوروبيين، باستثناء خادمين اثنين من أصول إيطالية، كانا يقومان بخدمتها والتبرّك بها. وكانت هذه السيّدة، قبل مغادرتها بلادها، من الأسرة الحاكمة؛ وكانت صديقة لوالدة "كينغلك"، صاحب هذه الرحلة وراويها. وقد استغلّ هذا الأخير علاقة ستانغوب بوالدته، ليصل إليها. والواقع أنّ الليدي ستانغوب كانت محلّ تقديس في إقامتها بالشرق العربي، فقد كانت تثير اهتمام الناس بقديسيّة المهمة الرّسوليّة التي كرّست حياتها لها، وقد تركت وراءها في بلدها المال والسلطة والحياة الرّغيدة. "وأكثر ما ينسبون إلى هذه السيّدة غرائب وعجائب لا يكادُ يصدّقها العقل حتى قيل إنّ سكّان الجبال يعتبرونها

14 - علي بهداد، الرحالة المتأخرون، ترجمة ناصر نصطفى أبو الهيجاء، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ط الأولى 2013، ص 59.

15 - محمد أحمد السويدي، من مقدمة كتاب (رحلة إلى الشرق)، للكاتب البريطاني أ. و. كينغلك، ترجمة محمود العابدي، دار السويدي للنشر والتوزيع، (الإمارات) / دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق)، ط الأولى 2005، ص 5.

مخلوقا ملهما؛ بل لقد غالى بعضهم فذكروا أنّها تدّعي لنفسها فوق ما ينسب إلى الأنبياء¹⁶. يخطر بالبال من خلال هذا الاحتفاء برمزية هذه السيّدة، أهميّة الوجود المسيحي في بلاد المسلمين. فقد كان هؤلاء المسيحيون في طليعة من رحّبوا بمقدم الرخالة البريطاني، رغم الاختلاف القومي والثقافي بين الشرق والغرب. أمّا المسلمون فكانوا يتحاشون الأجانب ويتوجّسون منهم خيفة. إنهم شعبٌ غير مضياف، ولا يألّفون الغرباء، بل يعتبروهم رمزا من رموز الشرّ والخطر الداهم.

ماذا يعني أن يكون العرب المسلمون منغلقيين على أنفسهم ولا يرحّبون بالغرباء، والأوروبيون مقبلون عليهم، ومتودّدون إليهم؟ لا يعني ذلك إلّا أنّ العرب قوم همّج، لا يقبلون التعايش السلمي مع الآخر، وهم بدائيون وعدائيون. إنّ نسق الغيرية راسخٌ في وعي الرخالة "كينغلك"، وهو الذي يوجّه خطاه في بلاد الشرق، ويحدّد علاقاته بالأهالي المحليين والأوروبيين المقيمين عندهم وعلاقاته بالأقليات الدينيّة، كالمسيحيين، واليهود.

بالعودة إلى السردية يشدّ انتباهنا الاحتفاء الذي أبداه الرحالة بالعجوز البريطانية المقيمة في الدّير في أعالي جبال لبنان. لقد كانت في نظر المعجبين بما قدّيسة ملهمة، مهمّتها إحياء ثقافة مسيحيّة كانت في طريقها إلى الاندثار. وقد اختارت الشرق بوصفه أرض النبوءات وهو في أضعف حالاته، ويمكن اختراقه من أيّ ثقافة وافدة. والمبشّرون المسيحيون يتقنون استغلال مثل تلك الفجوات والفراغات الروحيّة لدى آخريهم. ولا يخفى على كلّ مهتمٍّ بالآخريّة ما بين الاستعمار والتبشير من علاقات مشبوهة. لقد كان المبشّرون المسيحيون والمستشرقون والانثروبولوجيون، وعلماء الآثار يتحرّكون بشكل جماعي. فمهمّتهم واحدة، وهي السيطرة على الآخر والبحث عن المسوّغ الأخلاقي لتلك السيطرة. إنّ كلّ أفعال السيطرة العسكريّة التي قامت بها الحكومات الاستعمارية في الشرق العربي كانت مدعومة من هؤلاء المرافقين.

إنّ جوهر الثقافة المسيحيّة هو الحبّ الإنساني الذي يؤمن به المسيحيون ويشيعونه حيثما ذهبوا. إنّها رسالة كلّ مسيحي ينتشر في كلّ بقاع الكون، فالرسالة المسيحيّة رسالة كونيّة، والدّيانة المسيحيّة على حدّ قول شاتوبريان، هي التظاهرة الثقافيّة العليا في التاريخ الإنساني. ما من رخالة إلى الشرق العربي يخطئ هذا البعد الإنساني من رحلته.

يعود بنا الرحالة إلى ظروف مغادرة الليدي هستر بريطانيا في ظروف عصيبة، ويعبر عن دهشته من ردّة فعلها إزاء وفاة خالها "إيرل ويليام بت" الذي كان رئيسا للوزراء وكانت هي وزيرة الدولة للمآدب والحفلات. لقد مات إيرل أمام عينيها، "وقلبه ينطوي على أنبل الأحاسيس وأشرف العواطف نحو بلاده"¹⁷. كان الوزير إيرل -وهو في فراش الموت يسمع عن انتصارات نابليون الذي كان يشغل أوروبا ببطولاته العسكريّة، ويشغل فرنسا بروحه الوطنيّة المتوهّجه، ونزوعه نحو القوة والمجد العسكري على حساب الدول المستضعفة في الشرق العربي وفي آسيا المتخلّفة. والواقع أن القرن التاسع عشر هو قرن الاستعمار الأوروبي بكل روافده.

عندما شاهدت الليدي هستر الوزير وهو يفارق الحياة، ويوصيها ببلدها، انكسرت روحها وضعفت حركتها، وفكّرت في تغيير نمط حياتها والتحول إلى حياة رحيّة تخدم من خلالها قضية وطنها وتحقق خلاصها الروحي. غير أنّ كينغلك لم يستسغ ردّ فعلها. "تعوزني معرفة تعليل الأمور عندما أرى الأشخاص ذوي الأنوف الشاحخة، وأولي العزّة والكبرياء إذا أصابتهم المصائب واستبدّت بهم الأحزان كثيرا ما يلجأون إلى الشرق الروحاني"¹⁸. ما يلفت الانتباه في هذا التّعقيب هو أنّ الرحالة يميّز الأوروبيين بعلامات فيزيائيّة: الأنوف الشاحخة، التي ترمز إلى الكبرياء الذي يتّصف به الأوروبيون استنادا إلى قوّتهم الماديّة. كما يميّز الأوروبيون أنفسهم عن آخريهم بالبشرة البيضاء. فالأوروبي هو الرّجل الأبيض في مقابل الملونين، أو غير الأوروبيين. في الرواية التي كتبها كونراد، حول مغامرته في أدغال إفريقيا، كتب يقول: "إنّ فتح الأرض التي غالبا ما يعني انتزاعها من أولئك الذين لهم بشرة مختلفة عن بشرتنا أو أنوف أكثر تسطيحا بقليل من أنوفنا ليس عملا جميلا حين

16 - أ. و. كينغلك، الرحلة إلى الشرق، ترجمة محمود العابدي، دار السويدي للنشر والتوزيع، (الإمارات)/ دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق)، ط الأولى 2005، ص 18.

17 - أ. و. كينغلك، الرحلة إلى الشرق، ص 22.

18 - أ. و. كينغلك، الرحلة إلى الشرق، ص 22.

نأمله بإمعان¹⁹. فالذي يميّز الأوروبي عن العرب هو البشرة البيضاء والأنف المعقوف، دلالة على الذكاء وحدة البصيرة، على حدّ رأي الأنثروبولوجيا الاستعمارية النشطة في هذا المجال المقارني. وقد وُصفت الليدي هستر بالبياض النَّاصع، واقترن هذا الوصف بالثناء على نبلاها ودماثة خلقها. لقد أُريد لها أن تكون رمزا للمرأة الأوروبية الخالصة في عروقتها ودمها، وفي مسيحيتها. وكما تمّ تنميط العربي بالكسول والخامل والمتعجرف، نمّط الأوروبي صاحب البشرة البيضاء بالذكاء والنبيل والحسن الإنساني.

بالعودة إلى مقولة الرحالة يمكننا التقاط صورتين نمطيتين، إحداهما عن الأوروبي وهي صورة هوسية، والأخرى عن الشرق الذي يحلّ به الأوروبي، وهي أيضا هوسية، مادام لا يرتادها إلا مسيحيون.

لقد وصف الأوروبي معقوف الأنف وصاحب البشرة البيضاء بالكبرياء والشموخ، وخصوصا إذا قورن بالعربي الكسول والخامل، والمنطوي على نفسه. هذا الأوروبي إذا عصفت به الشدائد سرعان ما يحتمي بدفء الشرق وروحانيته الملهمة بعقب النبوة والرسالات السماوية. وإنّ الدّير هو المكان الحميم الذي يسكن زوّاره ويمدّهم بحب الحياة وشهوة الحكم في الآخرين. فالدير موجود بالشرق العربي؛ إنّه في أرض يحتلّها عربٌ ليسوا أهلا للقيام بالرسالة المسيحية؛ على الأوروبيين أن يحتلّوا هذا المكان وينطلقوا في نشر كلمة الربّ، وفي أرض المسيح. إنّ الأوروبيين هم أولى من كلّ الشعوب غير الأوروبية بهذا المكان المقدّس. وتحوّل "الليدي هستر" العجوز البريطانية القابعة في الدّير، وفي بلاد الأغراب إلى استعارة بليغة، من حيث دلالتها على بريطانيا العظمى، الموصوفة بالحكمة والعقل والروح المتوهّجة. وهي في قلب الشرق العربي من أجل تنصيره وتنقيته من شذوذه وشريته. وبفضل وجودها هنالك يتنازل عدد المسيحيين بحيث يتمكّنون من تغيير وجه الشرق المتخلف، والموسوم بالصّمت الثقافي، وبالبدائية. إنّ القيام بالتوأمة بين الشرق والغرب هو السبيل الوحيد لمعالجة تخلف الشرق ومادية الغرب. وبانصهارهما في تشكيل ثقافي واحد يمكن للحضارة الإنسانية أن تبذل شعوبا أكثر إنسانية ورفقا. وينسجم هذا التوجّه الكوسموبوليتي مع ما كان يرّده الفيلسوف والشاعر الألماني جوته في (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي) من "أنّ الشرق والغرب لا يمكنها أبدا أن يفترقا"²⁰. من أجل ذلك يلجأ الأوروبي إلى الشرق كلما حزبه مادية الحضارة الغربية، وكلّما حنّ إلى أصوله المسيحية، وبعده الروحي وعمقه الإنساني. ومن أجل ذلك هرعت الليدي هستر إلى لبنان ملتقى الأديان السماوية، ومهد المسيحية.

يعارضُ الرحالة البريطاني "كينغلك" مقولة مواطنه الروائي روديارد كبلينغ (1865-1936) في مقولته الشهيرة "الغرب غربٌ والشرق شرقٌ ولن يلتقيا أبدا". غير أنّ معارضته تلك لا تنطلق من مبدأ إنساني، وإنّما هي إحدى استراتيجيات الهيمنة والاحتواء. فالمركزيّة الغربيّة لا تكفي بعرض رؤيتها للعالم وإنّما تعمل على فرضها وتغيب قوى المعارضة التي تنطلق من دول الهامش، رفضا للسيطرة الكولونيالية.

يقدم الرحالة "كينغلك" صورة تمثيلية هوسية عن "الليدي هستر" في الشرق الإسلامي، وهي محاطة بمحالة من التبجيل والإعجاب من قبل البدو بين الشام ولبنان. "وقد زاد في نفوذها وأعلى من مقامها ما توافر من الإشاعات عن كرم أرومتها وشرف أصلها وبالع ثرائها؛ يضافُ إلى ذلك خلقها القويم، وشخصيتها القويّة وشجاعتها الفدّة مما ساعدها على أن تتمتع بما يشبه الحكم المطلق بين القبائل"²¹. لقد أريد لهذه الشخصية المهيبة أن تكون رمزا للرجل البريطاني القويّ حيثما حلّ. ولقد كانت بريطانيا منذ أن كان لها تواجدٌ في مستعمرات أجنبية لا ترسلُ إلا رجالا أقوياء ويتمتعون بحضور كاريزمي، وما أن يتراجع شبابهم وقوّتهم الفيزيائية حتّى يُستبدلوا بآخرين من فئة الشباب القوي والنشط. فكان البريطاني لا يُرى إلا في أفضل حالاته. فليس بعجيب أن تكون الليدي هستر على درجة عالية من الهيبة والتأثير، وخصوصا عندما يضافُ إلى كلّ تلك الخصال التقوى ولزوم الدّير. وقد عا ذلك أن حضورها لا علاقة له بالسياسة الكولونيالية التي عُرفت

19 -أورد هذا المقطع إدوارد سعيد في مقدمة دراسته لرواية كونراد، في كتابه (الثقافة والإمبريالية)، ص 55.

20 -سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط الأولى 1987، ص 48.

21 -أ. و، كينغلك، الرحلة إلى الشرق، ص 23.

عن الحكومة البريطانية التي كانت تحتلّ في القرن التاسع عشر مناطق شاسعة من الشرق العربي وغير العربي. لقد كانت تزيج فرنسا عن مستعمراتها في إفريقيا لتأخذ مكانها. ونزعتها الاستعمارية وإلى يومنا هذا لا يخطئها الإدراك.

استغلّت الليدي "هستر" سمعتها الاجتماعية ومكانتها لدى العرب البدو لتعلن عن وجه آخر من وجوه وضعها في الشرق. لقد أعلنت عن أنّها تتواصل مع الله، وذلك يعني أنّها مكلفة بإرسالية إلى البشر.

لقد عهدنا عن رجال الدين المسيحيين أنّهم أوصياء على هداية البشر إلى المسيحية، وهم يعتبرون أنّ كل من لا يؤمن بعبسى ولا يتبع إنجيله فهو كافر ولن يدخل الجنة. غير أنّ هذه العجوز التي استوطنت ديرا بلبنان ذهبّت أبعد من هؤلاء الدعاة، لتدعي أنّها تتواصل مع الذات الإلهية. إنّها مبشّرة من نوع خاص. فادّعاء النبوة في عصرنا، أو حتى في حقبة التنوير الأوروبي غدا مدعاة للسخرية. لقد قضت الحداثة على كلّ ما له علاقة بالميتافيزيقا وبالفكر الكنسي. ولقد أصبح نقد الدين حقلاً معرفياً أثيراً في علم الاجتماع الأوروبي وغير الأوروبي. يخطر بالبال في هذا السياق نقد الدين في الإيديولوجيا الماركسيّة، والوجوديّة، وفي كلّ الفلسفات العلمانيّة. لقد اعتبر الدين خرافة أو إيديولوجيا صنعها البشر من أجل الهيمنة على المسحوقين وإسكاتهم عمّا يلحقهم من إذلال الأقوياء. ومن هذا المنظور فإنّ الخطاب الديني الطارئ من قبل الليدي هستر يبدو غير مفهوم ولا هو مبرّر.

2-2- تمثيل البدو:

يتحدّث الرحالة البريطاني في سرديته عن علاقة الليدي هستر بإحدى القبائل العربيّة التي تحالفت معها، وآوتها، وعملت على حمايتها. وقد لاحظت الليدي ذات يوم، بينما كانت في ضيافة زعيم القبيلة، أنّ حرباً توشك أن تقع بين القبيلة التي تحالفت معها وقبيلة أخرى معادية لها. ولما ألحّت على مضيفها لمعرفة سبب العداء صرّح لها أنّ السبب هو التحالف الذي أقامته قبيلته مع سيّدة انجليزية. "ولأنّ واجب الضيافة يحتّم على قبيلته الصمود في وجه العدو مهما بلغت قوّته للدّود عن السيّدة الانجليزية"²². اعتبرت القبيلة المعادية للقبيلة المتحالفة مع الليدي هستر، أنّ التحالف مع الأجنبي هو أمرٌ مرفوض عند المسلمين، باعتبار الاختلاف الثقافي بين الشعبين، وباعتبار الأصول الأوروبيّة للسيّدة الانجليزية. لقد كانت القبائل العربيّة تدرك بذكاها البدوي الطّبيعة الاستعماريّة للرحالة والمبشرين الأوروبيين. ولم يكن خافياً على أحد أنّ بريطانيا من أكثر الدّول الأوروبيّة استعماراً للشعوب المستضعفة. وهي إلى الآن لا تزال كذلك، رغم دهاء سياستها الخارجيّة. وبسبب هذه الخلفيّة كان تحالف إحدى قبائل البدو مع السيّدة الانجليزية مرفوضاً من قبل القبيلة المناوئة.

أدركت العجوز البريطانيّة أنّها السبب الوحيد للعداء بين القبيلتين، كما أدركت أيضاً مدى تقديس العربي لقيمة الضيافة، وهي من أهمّ القيم الثقافيّة للعرب. فالدين الإسلامي يحثّ على إكرام الضيف وتقديم الحماية له إذا كان أجنبياً، ويحرّم المساس به حتّى وإن كان من قوم عدوّ. ومن أجل رفع الحرج عن أصدقائها قرّرت الليدي هستر أن تغادر القبيلة إلى وجهة آمنة. وتبعها حلفاؤها العرب متنكّرين في زيّ قطاع الطّرق، لاختبار شجاعتها، فوجدوها من معدنٍ نادرٍ.

يكشف لنا الرحالة عن وجه آخر من أوجه الشرق؛ إنّهُ الشرق الأسطوري الذي لا تنتهي عجائبه. إنّ عاصمة الشرقيين يعيشون على الخرافة والأساطير؛ ولا يُبرأ من ذلك غير الفئة المثقفة التي تحتكّ بالحداثة الغربيّة وتتأثّر بها. واللافت في هذه الحالة، أنّ الليدي هستر، السيّدة البريطانيّة المثقفة، لما استقرّت بالشرق، واحتكّت بعامة الناس أصبحت هي الأخرى منغمسة في أجواء السحر والسّحرة، وعالم الجن، وما شاكل ذلك من أرواح شريرة أو مسالمة. وينفي السارد أن يكون اعتقادها بالسحر والتنجيم "ناشئاً عن شذوذ في التفكير، وإنّما هو انعكاسٌ لتأثير المحيط الذي تعيش فيه"²³. لقد كانت الثقافة الشعبيّة في لبنان غارقة في الخرافة، وهي النقيض المطلق للحداثة الغربيّة التي

22 - أ. و. كينغلك، الرحلة إلى الشرق، ص 25.

23 - أ. و. كينغلك، الرحلة إلى الشرق، ص 32.

لم تأخذ بعدُ بُعْدَها الكوني كما هو الشأن اليوم. لقد كان الشرق يسبح في عالم السحر والخرافة بشكلٍ لا شفاء منه. هكذا صوِّره الرَّخالة في هذه السَّردِيَّة.

فقد شاع في ذلك الحين وجود كنزٍ من الذهب تحت الأرض في مدينة عسقلان، وحاول بونابارت الحفر في المكان، ولكنه مُنِع من قبل الجن، إذ لما ألقى يده داخل الكهف شُلَّتْ، فانسحب خائبا. ومن بعده حاول إبراهيم باشا التنقيب عن الكنز "بالمدافع الثقيلة والتمايم الشَّريَّة؛ ولكن حراس الجن جعلوا إبراهيم باشا يعود أيضا فاشلا مدحورا"²⁴. تضعنا هذه السَّردِيَّة في عالم "ألف ليلة وليلة"؛ وفيها تكثر سرديات الجنِّ والعفاريت والكائنات العجائبيَّة المتخيَّلة. ويسود الاعتقاد أنَّ تلك المعتقدات مستوحاة من التراث الشعبي غير العربي في القرون الوسطى. إذ أننا نعلم أنَّ مؤلفي حكايات "ألف ليلة وليلة" ليسوا عربا. إن بعضهم فارسي وآخرون أتراك وأكراد وهنود. وبالتالي فإنَّ ذلك التراث الحكائي هو خليط هجينٌ من السَّرد العجائبي والخرافي. ومن الغريب أنَّ الرَّخالة الغربيين يستسيغون هذه الحكايات العجائبيَّة، بل إنَّهم أبدوا تعطُّشا شديدا لمثل هذه السَّردِيَّات الواردة من الشرق، والتي كان الأوروبيون كرها فيها. فنبليون بونابارت حاول الكشف عن الكنز وعجز. وهو شخصيَّة أوروبيَّة، آمن بتلك الخرافات وانساق نحوها طمعا في الثراء. ومن بعده تقدَّمت الليدي هستر بكلِّ جرأة وثقة للخوض في التجربة المثيرة للدهشة.

وهذه المرة لم يعترض الجن على عملها. فقد تمكنت الليدي من العثور على الكنز، ولم تجد ذهباً ولا فضةً، وإنَّما بعض الأواني الفخاريَّة، لتردَّ د عقب ذلك "اقتربت الساعة التي يمكن فيها صاحب المعرفة الصَّحيحة من اكتشاف كنوز الأرض"²⁵. لم يتمكن أصحاب الأرض من الوصول إلى الكنز، وعجز الفرنسي عن ذلك، لتتمكَّن البريطانيَّة من إنجاز الحفر واكتشاف المخبوء. إنَّ اكتشاف كنوز الشرق بيد إنجلترا. لقد قلنا آنفا أنَّ الليدي هستر هي استعارة عن قوَّة بريطانيا العظمى وحضورها المؤثِّر. إنَّما وحدها القدرة على تفجير ثروات الشرق وكنوزه، من خلال ما تقدَّمه من عبقرية وحكمة واقتدار. لقد كان الشرق مستعصيا على أهله وعلى كلِّ الأجانب باستثناء البريطانيين. تستمرُّ الليدي هستر في سرد قصَّتها في الشرق، عندما أُلِّمَ بها المرض أثناء إقامتها في "جونية"، التي تقع في جبل لبنان. إنَّها منطقة سياحيَّة تقع في شمال البلاد. تخلَّى عنها خدمها أثناء مرضها، وهاجمها اللصوص ونهبوا منزلها، وقد كانت تملك ثروة كبيرة من التحف الثمينة والنادرة، جمعتها أثناء إقامتها بالشرق. وفي هذا السياق من الحكيم ترتسم لدى القارئ صورة رهابيَّة أخرى عن الشرق المتخلف في ظلِّ الحكم العثماني المهمجي، على حدِّ رأي السَّارد. إنَّ مظاهر التخلف في الشرق عديدة، فهو خرافي، وهو موطنٌ لقطاع الطرق واللصوص، والاستبداد السياسي. وقد يكون المكان الوحيد الآمن هو الدَّير الذي تقيم فيه الليدي هستر. فقد كان مكانا مهابا، ولا يستطيع أحدٌ أن يقترب منه بنية السَّرقَة. إنَّه يُرهَّب الجميع بما فيهم كبار الشخصيات. "كان هذا الدَّير شبه المتهدم والذي يحرسه قلب سيدة انجليزيَّة، كان متمتعا بالأمان، فهو البقعة الوحيدة في جميع أنحاء سوريا وفلسطين البعيدة عن سلطة محمد علي وقائده الصَّارم"²⁶. والواقع أنَّ الليدي تتمتَّع بسلطة روحيَّة، وحضور أخلاقي، ومن غير الوارد أن تزحج عن مكانها ما دامت معتصمة في معبدها. ولعلَّنا نجد نصوصا في الشريعة الإسلاميَّة تحرِّم الاعتداء على المعتكفين في الصوامع والمعابد. وقد يكون ذلك أحد الأسباب التي منعت السلطة الحاكمة من إغناء وجود هذه المبشَّرة القادمة لخدمة الامبراطوريَّة البريطانيَّة.

كان إبراهيم باشا، والي مصر من قبل العثمانيين يطالب الليدي أن تسلمه الجنود الألبانيين المكلفين بحراستها، "ولكن هذه السيِّدة كانت دائما تجيبُ بلهجة الازدراء وعدم المبالاة (...)"؛ ولما كان للخرافة أثرٌ على إبراهيم باشا فقد أقعده ذلك عن التدخُّل في شؤون هذه النبيَّة"²⁷. كانت هذه السيِّدة البريطانيَّة تبدو وكأنَّها رسول العناية الإلهيَّة لتغيير الشرق وتحديثه عنوة. فقد كان حكامه محلَّ ازدراء واحتقار

24 - المصدر نفسه، ص 28.

25 - المصدر نفسه، ص 28.

26 - أ. و. كينغ، الرحلة إلى الشرق، ص 29.

27 - م. ن. ص. ن.

من قبل حكام أوروبا. وكان تفكيك الامبراطورية العثمانية من مشاريع أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية. بل إن نابليون بونابارت أثناء حملته على مصر، كان يعدّ المصريين وعلماء الأزهر بتخليصهم من السلطة المركزية بالآستانة. وعلى أساس على ذلك الوعد حضني الوجود الفرنسي في القاهرة بالقبول.

سمحت التجربة الرحلية بالشرق لكينغلك بأن يختبر الشرقيين في الكثير من طباعهم وعاداتهم. كما أن احتكاكه بالليدي هستر زوّده بكثير من الوسايا التي يجب ألا يتجاهلها الأوروبي أثناء تواجده في بلاد المسلمين. يعلّق الرحالة على التبجيل الذي تحظى بها الليدي في لبنان قائلاً أن من يحظى بمثل تلك "المهابة في قلوب الشرقيين يسهل عليه الاستيلاء على غلة جاره ومواشيه ودجاجه وعسله وكل ما يملك، ما عدا زوجاته بالطّبع"²⁸. لقد استطاعت السيدة البريطانية أن تستغل الشرقيين، وتوهمهم أنّها نبيّة وقديسة، وهي في الحقيقة مبشّرة، ومنخرطة في الشرط الامبريالي بشكل مباشر. وبالعودة إلى طفولتها وشبابها يُذكرنا الرحالة "هستر ستانجوب الشابة، وبعد أن توفيت جدّتها لأمّها انتقلت عند خالها، وهو حينئذٍ رئيس وزراء بريطانيا، وهناك اتّصلت بأعظم رجال إنجلترا ورجال السياسة، فعرفت شيئاً كثيراً عن مداراتهم وختلهم، وأدركت أكثر الأسرار غموضاً التي كانت تتخلّل السياسة الأوروبية"²⁹. لقد نشأت هذه السيدة على خدمة المشروع الاستعماري البريطاني، وقرّرت أن تخدمه تحت عباءة التبشير المسيحي، لتظهر على صورة المرأة التقية، والداعية إلى الله وإلى الحبّ الإنساني. إنّما حضرت إلى الشرق لأداء مهمّة استخباراتية من قبل حكومة بلدها. ولا يعزّب عنّا أنّ هذه السيّدة كانت شخصية حكومية، وتساهم في سياسات البلاد. لقد مثل الرحالة الشرقيين تمثيلاً دونياً عندما جعل سيّدة بريطانية ماهرة تستغلهم وتكسب ثقتهم وتبتزّ خيراتهم بمجرد إشارة. غير أنّ صورة أخرى هوسية تنبثق من رحم الصورة الرهاية. فالعرب يعتبرون المرأة مقدّسة، ولا يتنازلون عنها بأيّ ثمن. إنّها رمز الشرف والعفة والمروءة، ولا يمكن للرجل أن يتنازل عن شرفه ولو أدى ذلك إلى قتله. هذه القيمة الأخلاقية التي تُعطى لعفة المرأة لا يمكن للأوروبي أن يستوعبها. إنّ المجتمعات الأوروبية تحتفي بتحرير المرأة من الأعباء الأخلاقية التي تنصّ عليها الكنيسة. وبالتالي فإنّ حرية العلاقات الجنسية في الغرب يُنظرُ إليها على أنّها مكسب من مكاسب الحداثة وما بعد الحداثة. وصار يُنظرُ إلى المرأة العربية على أنّها لا تزال تكابد الهيمنة الذكورية مجسّدة في الحجاب وتحريم الفعل الجنسي خارج إطار الزواج. وتُلمعُ سرديّة كينغلك إلى هذه النظرة العربية الدّونية إلى المرأة العربية، وهو يدرك الحصانة التي تتمتع بها المرأة البدوية في الشرق العربي، ويعتبرُ ذلك حجراً على حريّتها.

يرسمُ كينغلك صورة رهاية حول الشرق (سوريا تحديداً)، باعتباره موطناً للأوبئة الخطيرة؛ إنّ وباء الطّاعون الذي ألمّ بمنطقة سوريا يُعدّ علامة تخلف وجهل وفقير. ويُعدّ حضور الليدي هستر في الشرق، وفي تلك الحقبة مبعوث العناية الإلهية. لما "انتشر الطّاعون في مدن سوريا أرسلت طبيبيها الخاص لمعالجة أصدقائها العرب، أغنياءهم وفقراءهم على السّواء. ولقد أُصيب هي نفسها بهذا المرض الويل، ولم تكد تُشفى منه حتّى عادت إلى مكافحة الظّلم والاستبداد بحماسة أشدّ وأقوى من ذي قبل"³⁰. يبدو الشّرق من خلال هذه الصّورة التمثيلية الرهاية موطناً للأوبئة القاتلة، فضلاً عن كونه مكاناً للخرافة والأسطورة والجهل والحروب الانتقامية. كما تبدو السيّدة البريطانية رمزاً للغرب المنقذ للشّعوب المتخلّفة على كلّ الأصعدة. لقد دخلت الشّرق محمّلة بالمعرفة العلميّة، وكشفت عن ذلك عندما تمكّنت من الحفر عن الكنز وتحديّ العوائق والمخاوف. كما كشفت عن ذلك وهي تهبّ لمعالجة الوباء الذي كاد يفتك بالبدو. وبذلك تؤكّد، نيابة عن الغرب عن إنسانية مهمّتها في الشرق.

28- أ. و. كينغلك، الرحلة إلى الشرق، ص 31.

29- م. ن. ص 34.

30- أ. و. كينغلك، رحلة إلى المشرق، ص 41.

وفضلاً عن كلّ ذلك تشيّر الليدي أنّها تبشّر بالديمقراطية والحرية من خلال محاربتها للاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي. وهكذا تتحوّل هذه المرأة الحازمة إلى رمز للغرب صانع الحضارة العلمية وناشر لقيم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان. ليكون الخطاب الديني الذي بشّرت به من خلال اعتكافها في الدير مجرّد قناع تداري به المهمة المناطة بها من قبل الحكومة البريطانية. وسواء أكانت تلك المهمة رسمية ومعلنة أم أنّها كانت تطوّعا من الليدي ومبادرة فردية، لا تعبّر عن جهة رسمية، فإنّ ذلك لا يغيّر شيئاً من مسار التأويل الذي نقترحه لهذه السردية الرحلية. لقد كانت إقامة الليدي في الشرق رمزا للحضور البريطاني وكانت قوّتها تعبيراً عن قوّة الامبراطورية التي لم تغب عنها شمس القرن العشرين. فقد كانت بريطانيا من أكثر الدّول الأوروبيّة سيطرة على أقاليم خارج حدودها.

الخاتمة:

في هذه الدراسة عالجنا كيفية إنتاج الآخر من خلال الصورة النمطية وعبر السرد الرحلي، وفقد أمكننا تحقيق النتائج التالية:.

-تعريف الصورة النمطية باعتبارها إحدى أدوات تمثيل الغيرية التي يتيحها علم الصورة. ومثّل التعبير من خلال الصورة النمطية الطريقة المثلى لتشكيل صورة مرغوبة عن الآخر.

-لقد شاع التمثيل من خلال الصورة النمطية في أدب الرحلة في الغرب الحديث، وهو أدب مرافق للامبراطورية الغربية التي اكتسحت الشرق العربي بدءاً من القرن الثامن عشر من أجل ابتلاعه والسيطرة على مقدراته.

في كتابه "الرحلة إلى الشرق" قدّم لنا كينغلك صورة رهابية عن الشرق المتخلف، موطن الجهل والأوبئة والاستبداد السياسي في ظلّ الهيمنة العثمانية. فقد كان الحضور العثماني في الشرق العربي رمزا للشر الماحق، وقد قاومه الاستعمار الأوروبي بكلّ أشكال العنف.

تمثّل الليدي هستر، بريطانيا العظمى بصرامتها وجلالها وهيبتها التي لا تقاوم. وقد كانت كاشفة لأسطورة الشرق وتخلّفه. كما ساهمت في فضح عنف الشرقيين وهمجيتهم المزعومة، متجاهلة أنّ هذا العنف من قبل الشرق كان بسبب الكولونيالية.

المراجع:

1- J. M. Mourail, l'image du tiers monde dans le roman français contemporain, presse universitaires de France, paris.

2- شفيق شاشو، الصورة النمطية عبر الانترنت وأثرها على تربية الطفل العربي، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر.

3- السيد ياسين، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط الثالثة 1983.

4- إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، المؤسسة العربية للنشر، ط الأولى 1981.

5- إدوارد سعيد، تغطية الإسلام، ترجمة سميرة نعيم خوري، دار الآداب، لبنان، ط الأولى 2011.

6- تزفيتان تودوروف، نحن والآخر، ترجمة ربي حمود، دار المدى/ سوريا، ط الأولى 1999.

7- إبراهيم بوخالفة، صناعة الشرق، دار الفكر العربي، الجزائر، ط الأولى 2018.

8- دانيال هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2008.

9- علي بهداد، الرحالة المتأخرون، ترجمة ناصر نصطفى أبو الهيجاء، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ط الأولى 2013.

10- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط الثالثة 2004.

11- سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط الأولى 1987.

